قلبُ الإنسَان في القرآن

■■ ربّان سفينة الجسم ، وقائد أجهزته نحو الخير حيناً ، ونحو الشر أحياناً ، إنه القلب : « ألا إنَّ في الجسم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألاَ وهي القلب .. » ، هذه حقيقة بدهية لم يختلف فيها اثنان في القديم بَلْه الحديث .

وإذا كان للقلب هذه المكانة الكبرى في حياة الإنسان فإن الإسلام في نهجه الإصلاحي كان غاية في الحصافة والدقة حينما توجه إليه أولاً بالتوجيه السديد ، والإصلاح الناجع ، ليكون نقطة انطلاق لسائر العلاجات ، أو ليضمن انفساح دائرة الصلاح حتى تعم الجسم كله ما دام الجوهر أو المحرك قد استوىٰ واستقام ■■

بقلم : عبد الغني أحمد ناجي

العقل لا يكفي . .

وإذا كانت قوى الإدراك في الإنسان ـ وهي العقل ـ لا تكفي في استواء الشخصية ، وفتح مغاليق الهداية في الحياة ، إذ أن تفكيرها الشارد بالرغم من امتيازه قد يجنح إلى الهلاك والدمار ، **فإن الإسلام وهو بهدف الإرشاد والتوجيه لا يعوّل على العقل وحده ، بل يتصدى للقلب ، ليصب فيه ـ بكل وسيلة ممكنة وناجحة ـ كل عناصر الرشد والهدى** ، ودليلنا على ذلك أن المشركين والكفار كان من بينهم من وصل بفكره إلى درجة العبقرية ، ولكن قلوبهم قد ران عليها الضلال ، فحجب عنها أنوار الهداية ، فلم ينفعهم ذلك الفكر الألمعي ، واستحقوا أن يُوصموا بالعمى في الحياة !

« فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

مناط الثواب . .

ومناط الثواب في الإسلام على ما في القلب من اهتداء أو ميل إلى الخير ، فالهم بالخير خير ، يُؤْجر عليه المسلم ، حتى إذا نفذت الجوارح كان تضاعف الثواب والأجر ، فالحسنة بعشر أمثالها .

وإذا تلونا **القرآن الكريم** وجدناه يستقصي أنماط القلوب البشرية في ميولها ونزعاتها ، واستوائها ، وانحرافها ، ويذكر كل نمط في مناسبته بدقّة وإحكام معجزين للبشر ، وهو في تصنيفه العام للقلوب يجعلها قسمين رئيسين :

قلوباً سليمة ، وقلوباً مريضة ، والسلامة والمرض هنا لا يقصد بهما الجانب العضوي ، فقد يكون القلب سليماً عضوياً ولكنه جانح إلى الفجور ، وقد يكون عليلاً عضوياً وهو على جانب كبير من التقوىٰ والورع ، فالسلامة إذن هي الهداية والاستقرار على الجادّة التي رسمها الله تعالى لعباده المخلصين :

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ! ويقول تعالى مقرراً عدم نفع ما للإنسان في الدنيا من زخرف ومال يوم القيامة :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ... ﴾ .

مرض القلب واستقامته

والمرض للقلب حينئذ هو الضلال والزيغ ، والأحقاد ، والضغائن والشك والارتياب ، والقسوة والغلظة ، وتفرق الأهواء ! :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ ،

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ ،

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا ﴾ ،

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ... ﴾ ،

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

وإذا كان للإسلام طرائقه الفذة في العلاج والإصلاح ، فإنه في مجال القلب المهيمن على الإنسان يسلك النهج الفريد لتقويم ذلك الربان حتى تسير السفينة ـ سفينة الإنسان ـ نحو الشاطىء الأمين ، وهنا يرشد **القرآن الكريم** إرشاداً مَشوباً بالمدح ، بغية الاستجابة ـ للنصح ـ يُرشد إلى أقوم سبيل ، أو أنجع علاج لمرض القلب الذي أسلفنا توضيحه ، ويحصر هذا العلاج الأوَّلي في ذكر الله سبحانه وتعالى ، ويقرن ذلك العلاج بالنتيجة الباهرة ، أو الشفاء المنشود ، وذلك هو الاطمئنان القلبي المبتغى ، الذي يحس به الإنسان طيب الحياة ، أو يشعر بالسعادة في الحياة :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ،

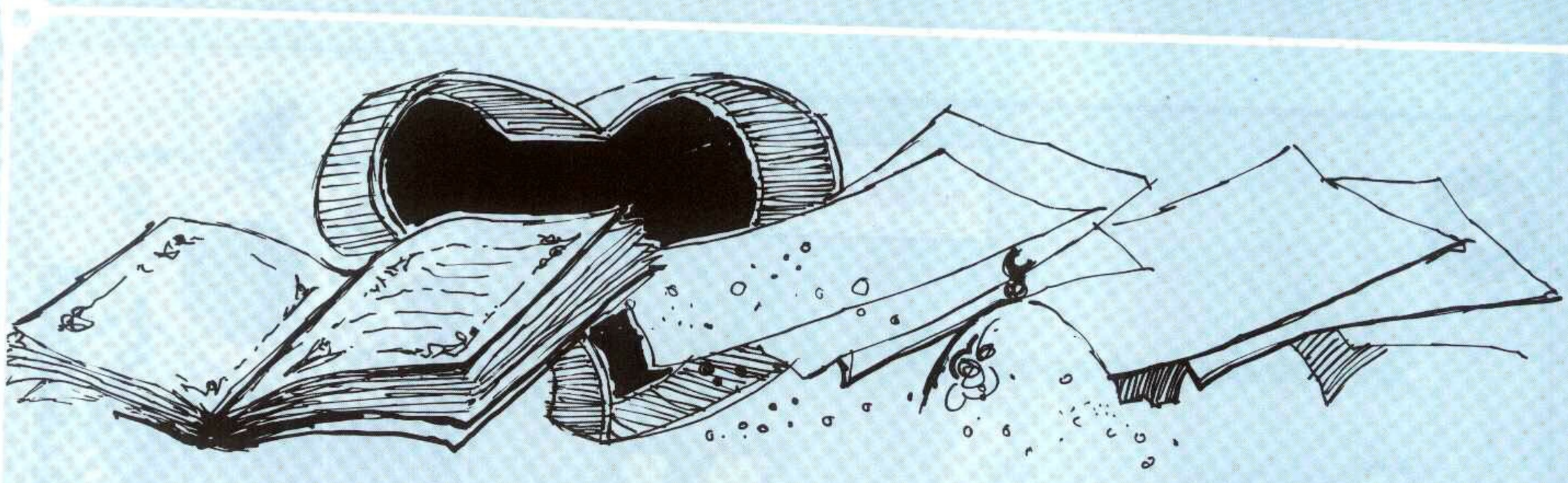

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ،

ولما كانت قلوب العباد بيد الله تعالى خالقها ، وهو الذي يمنح الإنسان ما به يصلح القلب ويستقيم ، كان على المؤمن أن يدأب على دعاء ربه بأن يهدي قلبه ، لما في تلك الهداية القلبية من سعادة الدارين :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ... ﴾ .

الربط على القلب . .

وإذا ربط الله على قلب الإنسان قوي وتفجرت شجاعته في كل ميدان :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ ،

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ،

﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ ،

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ .

ويتحدث **القرآن الكريم** مصوراً في دقة معجزة ما يعتري قلوب البشر من خوف وهلع نتيجة تخلي الله تعالى عن العبد بعدم الربط على قلبه ، وما يتبع ذلك من فقد ذلك الاطمئنان والأمان !

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ ، وقد يكون ذلك للابتلاء والاختيار كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. ﴾ .

ونقرأ في آية أخرى التعليل الصريح لما يصيب المؤمن من وَصَب في الحياة :

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ .

ولما كان القلب هو محط نظر الله تعالى من العبد مصداقاً لقول رسول الله ﷺ :

« إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . جاء في القرآن محطاً للرسالة ، ومهبطاً للهدى والرشاد ، يقول تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ، ويقول :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُواً لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ .

الختم أو الطبع على القلب

وكأن القلب وعاءٌ ، ومن ثَمَّ نجد **القرآن الكريم** يكني عن انغلاقه دون أنوار الإيمان بالختم ، وما أروع اللفظ في إيحائه !!! ، ألست تحس صلابة الحاجز ، وإحكام الإغلاق ، حتى لم يعد هناك أمل في تسرب أيّ شعاع إلى القلب المختوم عليه ، نستمع في ذلك إلى قول الله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ... ﴾

﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ ،

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

وقد يستعمل **القرآن** في ذلك المعنى لفظ الطبع ، فيقول الله تعالى في شأن الكافرين :

﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ،

﴿ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ،

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

والقارىء لهذه الآيات البينات يجد المقدمة والنتيجة متعددة : عدم سمع ، وعدم فقه ، وعدم علم ، وما أصدق **القرآن** في ذلك فوعاء الهداية موصد على خُواء معتم ، فكيف يكون مع ذلك سمع أو فقه أو علم ؟! ، وأحياناً يصور القرآن قلوب المعاندين بأنها محجوبة عن نور الحق والرشاد بأحجبة وأغلفة كثيفة :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ ،

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ ،

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ .

السكينة في القلب . .

ولما كان القلب هو مستقر الإيمان في الإنسان ، فإن الله تعالى لا يعبأ إلاَّ به ، وبما يحتويه من يقين واعتقاد :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ،

﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ... ﴾ .

وإذا أراد الله للإنسان حياة مستقرة استقرار هدوء ورضى ، أنزل السكينة في القلب ، ليستقر الجسم ، وترتاح الأعصاب ، وتتسق الأحاسيس والعواطف :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً ... ﴾ .

وتآلف الناس في الحياة عنصر من أهم العناصر التي تكون سعادة الفرد والمجموع ، بل هو المنبع الثَّر لتفجر تلك السعادة المبتغاة ، وهذا التآلف لا ينبع إلا من قلب مؤمن مطمئن ، صَبَّ الله تعالى فيه التآلف وحبِّ الخير صباً :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ ،

﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ .

من هذا الاستعراض لصنوف قلب الإنسان وأوضاعه في القرآن نقف على مدىٰ أهمية القلب أولاً ، ثم نُبَصَّرُ بقلوب هي رياض للإيمان وبأخرى هي بُؤر للفساد فنعمل جاهدين على أن تكون بين جوانحنا الأولى لا الثانية :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .